الدكتور صروف والادب

ينشأ بعض الناس على استعداد متساو للعلم والادب تبينهُ المناسبات وترجحهُ ضرورات النشأة الاولى ، فاذا صادف صاحب ذلك الاستعداد في مبدأ حياتهِ ما يميل بهِ الى ناحية العلم خرج عالماً يستفيد من ميولهِ الادبية صقلاً في العبارة وافتناناً في الذوق والتخيل أو تجني عليهِ تلك الميول فتقعد بهِ في منتصف الطريق بين شأو العالم وشأو الاديب فلا يبلغ النهاية القصوى في مطلب من هذين المطلبين . واذا صادفهُ ما يميل بهِ الى ناحية الادب خرج اديباً يستفيد من ميولهِ العلمية قصداً في التعبير وضبطاً في التفكير واتقاناً في التقسيم والترتيب او تجني عليهِ تلك الميول ايضاً فتشلّ خيالهُ وتجفف معين ذوقهِ فلا هو الى التحقيق الذي يبتغى من العلم ولا هو الى الجمال الذي يبتغى من الادب

هل كان الدكتور صروف من اصحاب هذا الاستعداد الشائع بين الملكات العلمية والملكات الادبية؟ او هل كان عالماً بالمصادفة لانهُ لم يكن اديباً بالمصادفة ؟ ان الجواب عن هذا السؤال لا يلتي بالمسئول في حيرة ولا تردد ، فانك تستطيع ان تجيب عنهُ بالنفي وانت آمن كل الامن من السهو او الخطإ . فانما نشأ الدكتور صروف عالماً لانهُ طبع على ملكات العالم الامين لفكرهِ الحريص على حقيقتهِ ، وانما أفاد الادب فائدتهُ النفيسة من جانب القصد والتحقيق لان الادب في ذلك الزمان كان احوج شيء الى قصد العبارة وتحقيق المعنى ، وكان — ولم يزل في اكثر فروعهِ — كلاماً لا مغزى لهُ ولا روح فيهِ ولا غاية لهُ وراء الالفاظ المرصوفة والجمل المحفوظة والتزويق الذي لا يرضاهُ ذوق الجمال ولا ذوق التمحيص والتدقيق

تقرأ المقال مما كان يكتبهُ «المنشئ البليغ» في العهد الذي بدأ فيهِ صروف حياتهُ الكتابية فلا تخطئ ان تجدهُ معرضاً للزهو بكثرة المترادف والمتوارد والاسجاع والفواصل او معرضاً للغلط في النحو والصرف والركاكة في المفردات والتراكيب ، فهو على أحسنهِ منظومة كأنها عقود الهَمَج تجمع من المحار والصدف كل ما لمع وزها وخلا من النسق والجوهر ، وهو فيما دون ذلك لا لمعة ولا زهو او لا اصداف ولا جواهر! وهذا كل الادب الذي كانوا يعرفونهُ قبل خمسين سنة ، وأكاد اقول انهُ هو كل الادب

الذي يعرفهُ عندنا اناس لا يزالون يُذكَرون بالقاب الكتاب والبلغاء ويحسبون بيننا اذا حسب دعاة الفكر والثقافة !

فما برح بعض « الادباء » في الشرق العربي يطلبون من الادب كل شرط الاَّ شرط القصد و« المناسبة لمقتضى الحال »، ويظنون انَّ الاديب اذا اجاد التنميق والترصيع ودس في كتابتهِ زهرة هنا ودمعة هناك ونجماً في الحاشية ووجنة او عيناً او غديرة شعر او ابتسامة ثغر في الطوايا .... فلا عليهِ بعد ذلك ان يجيء كلامهُ مطابقاً للغرض او بعيداً منهُ بُعْد النقيض من النقيض، ولا احد يلومهُ على الكذب في الوصف والمخالفة للواقع . مذ كانوا يطلبون من الصورة اللون والورق والاطار ولا يطلبون الشبه الذي هو الصورة كلها في الحقيقة او هو الشيء الذي من أجلهِ تصنع الاصباغ والاوراق والاطر .. !

ونعمت القناعة هذه لولا انها أفلاس الفناء وهم يقولون ان القناعة كنز لا يفنى !

لقيني اديب من هؤلاء الادباء فاظهر اعجابهُ ببيت من الشعر رثى بهِ احد الشعراء زعيماً قضى في نحو السبعين ووصف رفاته بانهُ « مثل ريحان الضحى » . فقلت لهُ : او لا ترى ان هذا الرثاء ليس مما يليق بالمرثي ولا يحسن ان يقال الاَّ في بنت غضيرة في ريعان الشباب ؟ قال : أجل ، ولكن اليست الصياغة جميلة .. ؟ قلت هذا كاهدائك ثوب الفتاة الى الشيخ الجليل ثم قولك اذا اعترض عليك معترض « نعم ! ولكن الثوب من حرير » واقسم اني ما اقنعت ذلك « الاديب » ولا تركتهُ الاَّ على ذوقهِ الذي استحب ذلك الرثاء

فمن شاء ان يعرف كيف كان الادب في العهد الذي ظهر فيهِ المقتطف فلينزل عن هذه الدرجة بمقدار خمسين سنة وليقس على جهالة هذا الفريق من قراء الادب تلك الجهالة المطبقة التي كانت فاشية يومذاك بين جميع القراء والادباء . فاذا استطاع ان يستجمعها في خيالهِ فقد استطاع ان يعرف فضل صاحب القلم « القاصد » والعبارة القويمة والمعنى المحكم بين اناس لم يبصروا من الادب في جيلهم الاَّ الفوضى والخلل والخواء من كل معنى يستطيبه الذوق او يسلّم بهِ الفكر السليم

لقد كان القصد رسالة صروف في عالم الادب وكان هو حاجة ذلك العصر من الاصلاح في الكتابة والثقافة . واكبر به من رسالة وابلغ بهِ من حاجة . فانك اذا

علمت انساناً ان يعني شيئاً يقولهُ وان يقول ما يعنيهِ فقد خلقت لهُ فكراً او ارسلت فكرهُ المعطل من سباتهِ ، وقد نفضت عن ذهنه آفة الجمود فاطلقتهُ من حجر وقومته من عوج وهديتهُ من ضلالة . وليست هذه بالرسالة القليلة من اديب منقطع لفنهِ متوفر على اصلاحهِ بل من العالِم الذي لهُ رسالات اخرى ينقطع لها ويتوفر عليها

كان صروف مطبوعاً على القصد والتحقيق لانهُ عالم يقول ما يعلم ويلتزم ما يفهم. واذا كان الادب ممنوًّا بالخلط والضلالة فقصد العلماء هو خير ما يرام لهُ وهو طبهُ الذي يأتيهِ من غير داره اذا كانت دارهُ مقفرة من دوائهِ

دخلت على العالم الفقيد يوماً فالفيته مشغولا بالبحث عن كلمة « شهية » يقول انهُ لا يعرفها في لغة العرب بمعنى قابلية الطعام ويحرص على ان يستوثق من معناها قبل ان يبت في استعمالها . وحادثتهُ مرة اخرى في اسلوب اللورد كرومر فقال انهُ يعجب لذلك السياسي الذي لا يزيد في كلامهِ ولا ينقص . فاذا كانت معلوماتهُ واحصاءاته تذهب بهِ الى هنا (واشار الدكتور الى موضع على المائدة) لم يذهب هو الى هناك (واشار الى موضع آخر جدّ قريب من الاول) فهذه امانة في السياسة وامانة في العبارة تدلان على قدرة ادبية وذهن مستقيم

بهذه الامانة القادرة بدأ الدكتور حياته الكتابية فكان منذ خمسين سنة ونيف يكتب بالاسلوب الذي يجري عليهِ الكتاب المجددون في هذه الايام . فأنت تقرأ فصولهُ الاولى في المقتطف وفصولهُ الاخيرة فيهِ فلا ترى بينهما فرقاً في العناية بالصدق والتحري للاصابة ولا تحسُّ الترقي بعد الترقي الاَّ فيما استزادهُ الفقيد من علم بمفردات اللغة ومرانة على التحبير وتوسع في الاطلاع . وماذا تقول في فضل كاتب مجدد اكبر من انهُ سبق المجددين الى هذه المزية بعمر كامل ؟ وانهُ كان مجدداً في اختيار الفاظهِ وآرائهِ قبل ان نشعر في جيلنا هذا بالحاجة الى التجديد ؟

على ان صروفاً شارك في الادب بغير القصد والدقة العلمية . فحفظ شعراً كثيراً كان يضعهُ أحسن الوضع في اماكن الاستشهاد من مقالاتهِ الوصفية ، ونظم شعراً كأجمل ما نظم العلماء في الحكمة وسر الوجود . وبين يدي الساعة ابيات لهُ في النيل نظمها قبل عشرين سنة فكانت خيراً من كثير مما يؤثر عن «الشعراء» في ذلك الحين وفيها يقول :

ابا مصر ومصدر نعمتيها لقد شاخ الزمان وانت كهلُ
بنى لك آل فرعون صروحاً عبدت بها، وانت لذاك اهل
فما نفس رأت نعماً غزارا وخصباً لا يقوم لديهِ مَحْلُ
وكان الشكر مرمى ناظريها وربُّ الكون لم يدركهُ عقل
بمشركة اذا شكرت صنيعا عن الادراك صانعه يُجلُّ
فان الفضل يعرفهُ ذووهُ وفضل النيل لا يعلوهُ فضل

ولهُ ابيات نظمها في سر الحياة عندما بلغ الثانية والسبعين يقول فيها :

سبعون حولا لقد مرت وما وجدت نفسي مقراً لها في العالم الفاني
. . . . . .
فرضان اما فناء والبناء لهُ لغوٌ ، واما بقاء شاءهُ الباني
اما واجسامنا ليست سوى صور مشكلات باشكال والوان
كهارب حركتها النفس فانتظمت في شكل مستودع للنفس جثماني
حتى اذا تم في الدنيا تطورها طارت الى منزل في الكون روحاني
وللتطور احكام مقررة والنفس والجسم في الاحكام سيان
لا بد للعلم من يوم يفوز بما يبيّن الحقَّ فيهِ خير تبيان

فهذه الابيات وامثالها من نظم العالم الفقيد ابلغ واصدق من اشعار كثيرة حفظت لنا اسماء فلاسفة وحكماء لم نعرف لهم اثراً غيرها ولا سمعنا بهم الاّ لانهم قائلوها ، فلولم يكن صروف عالماً يذكر بعقامهِ الرفيع في العلم لكان في شعرهِ بقية للذكر والرواية ، ولولم يعلمنا بقصدهِ وتحريهِ كيف نكتب ونؤدي حق الامانة لكانت بحوث المقتطف وتراجمهِ سهماً راجحاً لهُ بين سهوم الادباء والمشاركين في الآداب

فلتكن زهرة الادب منظومة بين اجمل الازهار التي يزدان بها اكليلنا حين نتقدم بهِ راكعين الى ذلك الضريح ، ولتبارك عرائس البلاغة عالماً رفع لها قربان العلم فكان أجدى لها من قرابين عبادها الغافلين ، وكشفها بنورهِ فكان أبين عن جمالها من دخان لا تبين فيهِ نار ولا نور

عباس محمود العقاد